حديث عن تعريب التعليم الجامعى

للدكتور محمد رشاد الطوبي

إن الحديث فى هذا الموضوع قديم ومتجدد ، ولا أظن أنه في حاجة إلى كثير من المناقشة والحوار ، بقدر ما هو في حاجة إلى نية صافية . وعزيمة لا تلين ، مصداقا لقول الشاعر :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

أى أن المحصلة تتناسب تناسبا طرديا مع قدر العزم ، أو «قوة العزم» إذا تكلمنا بلغتنا العلمية .

والواقع أن هذه القضية المهمة قد نوقشت مراراً وتكرارا ، في مختلف الأوساط الجامعية والمجمعية على حد سواء ، وانتهت تلك المناقشات إلى قرارات وتوصيات تعد بالعشرات ، ولكن لم يكتب لها النجاح لعدم توافر النيات الصادقة ، للسير قدما في هذا السبيل .

ومن ذلك على سبيل المثال المحاضرة القيمة التي ألقاها زميلنا الأستاذ الدكتور محمود حافظ أمام هذا المجمع الموقر في مؤتمره السنوي عام ١٩٨٥ (ألف وتسعمائة وخمس وثمانين) وعنوانها : «آراء في قضية التعريب العالي والجامعي»

وقد ناقش هذه المسألة مناقشة موضوعية ، مستنداً في ذلك إلى كثير من البيانات والإحصاءات ، القديمة والحديثة .

وهناك أيضا «المؤتمر الأول للكتابة العلمية باللغة العربية» الذي عقد في بني غازي بليبيا عام ١٩٩٠ (ألف وتسعمائة وتسعين) ، وقد شرفني المجمع بتمثيله في هذا المؤتمر ، حيث ألقيت بحثاً عنوانه : «تجربتي مع الكتابة العلمية باللغة العربية على مدى خمسين عاما» .

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة الثانية المنعقدة صباح الثلاثاء ٢٣ من رجب سنة ١٤١٢هـ الموافق ٢٨ من يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٩٢م .

وفي هذا المؤتمر أيضا تطرقت الأحاديث والمناقشات إلى موضوع التعليم الجامعي ، فبعض الجامعات ومنها الجامعة السورية قد رسخت أقدامها في التدريس باللغة العربية ، والبعض الآخر ومنها مصر والأردن لا يزال فيهما التدريس ، وبالأخص في العلوم الطبية ، باللغة الإنجليزية .

ونحن في واقع الأمر هنا في مصر في حاجة إلى قرار واحد ، يصدره «صاحب القرار» كي يصبح هذا الحُلم حقيقة واقعة ، لا سبيل إلى الرجوع عنها، أو النكوص فيها ، ويتم في هذا القرار الشجاع تحديد عام أو عامين للاستعداد ، حتى لا يؤخذ على غرة القائمون على التدريس باللغات الأجنبية، بل يتم الانتقال في سهولة ويسر إلى اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم .

إن قانون إنشاء الجامعة المصرية الذي صدر عام ١٩٢٥ (ألف وتسعمائة وخمسة وعشرين) ينص في أحد بنوده على أن التعليم في الجامعة «باللغة العربية» ، وكانت الجامعة عند إنشائها تتألف من أربع كليات فقط ، وهي .

١ – كلية الطب (مدرسة الطب سابقا حولت إلى كلية) .

٢ – كلية الحقوق (مدرسة الحقوق سابقا حولت إلى كلية) .

٣ – كلية الآداب (الجامعة الأهلية سابقا حولت إلى كلية) .

٤ – كلية العلوم (وهي الكلية الوحيدة التي أنشئت إنشاء) .

وكان إنشاؤها على نمط الكليات البريطانية المماثلة ، واستُدعى لها عدد من الأساتذة البريطانيين ، أو الأوروبيين الذين يجيدون اللغة الإنجليزية ، وأصبح التدريس فيها بطبيعة الحال باللغة الإنجليزية ، كما تم استيراد عدد لا بأس به من المراجع والدوريات العلمية في مختلف فروع العلم والمعرفة ، مما أعان الطلاب كثيراً على تفهم تلك العلوم واستيعاب محتوياتها .

ولم يكن بين هؤلاء الأجانب سوى ثلاثة من الأساتذة المصريين هم الدكتورعلى مصطفى مشرفة ، والدكتور أحمد زكي ، والدكتور محمد ولي ، عليهم جميعا رحمة الله ، وتزامنت عودتهم من

البعثة مع بدء الدراسة بكلية العلوم ، أو بعد ذلك بسنتين أو ثلاث .

ومع أن هؤلاء الأساتذة المصريين كانوا من جهابذة اللغة العربية ، وقام كل من الدكتور علي مصطفى مشرفة والدكتور أحمد زكي بالتدريس باللغة الإنجليزية ، إلا أن الدكتور محمد ولي ثار على هذا الوضع ، وأصر على التدريس باللغة العربية ، معتمدا في ذلك على القانون الأساسي الخاص بإنشاء الجامعة . وكان رحمه الله يقوم في الثلاثينيات من هذا القرن بتدريس مادة الحيوان لطلبة الدراسات الإعدادية في الطب والصيدلة وطب الأسنان ، وكانت تلك الدراسات تشتمل على مبادئ علوم التشريح والأجنة والوراثة والأنسجة والكيمياء الحيوية والطفيليات وغيرها ، ولكل منها مصطلحاتها الخاصة ، وأيضا تسمياتها الخاصة .

والواقع أن لكل من تلك التسميات العلمية ظروفها وملابساتها الخاصة ، فعند اكتشاف مرض جديد أو عقار جديد ، يقوم المكتشف باستنباط اسم مناسب يطلق عليه ، ومن ذلك على سبيل المثال عقار «البنسلين» الذي اكتسب شهرة عالمية ، وأصبح معروفا لكل إنسان ، فقد اشتق اسمه من اسم أحد النباتات البسيطة (أو الفطريات) ، وهي تقوم بصنعه في داخل خلاياها للتخلص من الميكروبات الفتاكة ، ويطلق على هذا الفطر اسم «بنسليوم نوتاتم» (Penecillium natatum) .

كما أن كلمة «البلهارسيا» وهي التي تطلق على أشهر الأمراض الطفيلية وأكثرها انتشارا في مصر – ترجع تسميتها إلى اسم العالم الألماني الذي اكتشفها لأول مرة عام ١٨٥١ (ألف وثمانمائة وواحد وخمسين) ، وهذا العالم هو «تيودور بلهارس» ، فعند حضوره إلى مصر ليعمل في قسم الطفيليات بمستشفى قصر العيني ، هاله عدد الإصابات التي ترد إلى المستشفى للعلاج ، كما هاله أيضا الهزال والضعف الشديدين عند المصابين .

وحدث في إحدى المرات ، التي كان يقوم فيها بتشريح الجثة بعد الوفاة ، أن عثر على بعض الديدان الدقيقة في داخل

الوريد الكبدي البابي ، وكان ذلك إيذانا ببدء مرحلة جديدة من البحث والتنقيب ، تَعَرّف بعدها على دورة حياة البلهارسيا في جسم المريض ، ويعتبر ذلك من أعظم الاكتشافات في علم الطفيليات وطب المناطق الحارة على الإطلاق ، والواقع أن بلهارس لم يطلق اسمه على تلك الديدان ، بل أطلق عليها اسما علميا هو «ديستومم هيما توبيوم» (Distemum haematobivm) .

ولكن حدث بعد ذلك بسنوات خمس – أي عام ١٨٥٦ (ألف وثمانمائة وستة وخمسين) – أن نزل إلى الميدان عالم آخر يدعي «همسباك» (Hemsbuch)، فقدم دراسة جديدة عن ديدان البلهارسيا ودورة حياتها ، وأطلق عليها في هذا البحث اسم «بلهارسيا هيما توبيوم» (Bilharzia haematobium)، وذلك تكريما لمكتشفها واعترافا بعلمه وفضله .

ولما لم يذع أمر هذا البحث ، فقد قام عالم آخر يدعي «وينلاند» (Weinland) بنفس الدراسة السابقة ، وأطلق على تلك الديدان اسم «شتستوسوما هيما توبيوم» (Schistosoma haematobium) ، وكان ذلك عام ١٨٥٨ (ألف وثمانمائة وثمانية وخمسين)، أي بعد عامين من المؤلف السابق ، وقد وجد الاسم الأخير طريقه إلى معظم المراجع العلمية ، ولكن نظراً لقانون الأسبقية ، فإن الاسم الصحيح لهذا الجنس من الديدان الطفيلية هو «بلهارسيا» ، وهو الاسم الذي أطلقه عليها العالم «همسباك» كما ذكرنا من قبل . وقد أثبتت تلك المعلومات وغيرها في الكتاب الذي اشتركت في تأليفه مع بعض الزملاء عن «تاريخ الحركة العلمية في مصر» (الكتاب السابع عن علم الحيوان) وهو الذي أصدرته أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا عام ١٩٩٠ .

المصطلحات العلمية

ولا أسترسل كثيراً في هذا الحديث بل أتوقف قليلا عند كلمة «المصطلحات» لأن «المصطلحات العلمية» هي التي يلوذ بها ، ويلجأ إليها ، المناصرون للإبقاء

على التعليم الجامعي باللغات الأجنبية ، بل هي المبررات الوحيدة التي يسوقونها عند الحوار معهم في هذا الموضوع ، والواقع أن تلك المصطلحات البراقة ، ذات الرنين المرتفع ، لا تخرج في مضمونها عن بعض المقاطع التي يتم اختيارها بدقة وعناية ، من اللغتين الإغريقية أو اللاتينية . أمثلة ذلك :

١ – مصطلح علمي مكون من مقطعين كليهما من اللغة اللاتينية

Binucleate بمعنى ثنائي النواة (ترجمة)

مشتق من (L) Bis مزدوج و (L) necleus = نواة .

٢ – مصطلح علمي مكون من مقطعين كليهما من اللغة الإغريقية Ectederm بمعنى اكتودرم (تعريب)

مشتق من Ektos(g) = خارجي و derma (G) = جلد .

٣ – مصطلح علمي مكون من مقطعين أحدهما من اللغة اللاتينية والثاني من اللغة الإغريقية subglossal بمعنى تحت لساني (ترجمة)

مشتق من Sub(L) = تحت و glossa (GR) = لسان .

ترد إلينا مثل هذه المصطلحات سنويًا بالمئات في المراجع الأجنبية ، وبالأخص في العلوم المستحدثة ، كالهندسة الوراثية والبيولوجيا الإشعاعية والحاسبات الإلكترونية وغيرها ، وتتلقفها اللجان العلمية في المجمع لفك رموزها ، حتى يصبح من المستطاع نقلها إلى اللغة العربية ، ترجمة أو تعريبا ، تبعًا لمقتضيات الحال . وقد سجلت آلاف من المصطلحات العلمية التي عالجتها لجان المجمع فيما يقرب من العشرين معجما علميا ، صدرت معظمها في السنوات العشر الأخيرة من حياة هذا المجمع الخالد ، بإشراف وتشجيع من رئيسه الكبير الأستاذ الدكتور إبراهيم بيومي مدكور . وبيان هذا المعاجم العلمية وتاريخ صدورها موضح في الكشف التالي .

كشف بالمعاجم العلمية التي أصدرها مجمع اللغة العربية في السنوات الأخيرة

١ – معجم الجيولوجيا (الطبعة الأولى) ١٩٦٥ .

٢ – معجم الفيزيقا النووية والإلكترونيات (الجزء الأول) ١٩٧٤ .

٣ – المعجم الفلسفي ١٩٧٩ .

٤ – معجم الجيولوجيا (الطبعة الثانية) ١٩٨٢ .

٥ – معجم الفيزيقا الحديثة (الجزء الأول) ١٩٨٣ .

٦– معجم الكيمياء والصيدلة (الجزء الأول) ١٩٨٣ .

٧ – معجم الهيدرولوجيا ١٩٨٤.

٨ – معجم علم النفس والتربية (الجزء الأول) ١٩٨٤ .

٩ – معجم البيولوجيا في علوم الأحياء والزراعة (الجزء الأول) ١٩٨٤ .

١٠ – معجم المصطلحات الطبية (الجزء الأول) ١٩٨٥ .

١١ – معجم الفيزيقا الحديثة (الجزء الثاني) ١٩٨٦ .

١٢ – معجم الحاسبات ١٩٨٧ .

١٣ – معجم البيولوجيا في علوم الأحياء والزراعة (الجزء الثاني) ١٩٨٨ .

١٤ – معجم المصطلحات الطبية (الجزء الثاني) ١٩٩٠ .

١٥ – معجم الكيمياء والصيدلة (الجزء الثاني) تحت الطبع .

١٦ – معجم النفط تحت الطبع .

خاتمـــة :

نرى مما تقدم أن تعريب التعليم الجامعي ليس بالصعوبة التي يتصورها البعض ، بل إنه في غير حاجة إلى هذا الضجيج المفتعل الذي يثار حوله من آن إلى آخـــر ، وبالأخص من أولئك الذين يمجدون كل ما هو أجنبي ، بل إن هناك على ما يبدو تيارات خفية تدفعنا في هذا الاتجاه .

ولا يقتصر ذلك على موضوعاتنا العلمية ، بل يتعداها إلى كل ما يتعلق بحياتنا اليومية ، ومن ذلك على سبيل المثال موضوع «الأسماء الأجنبية» التي تطلق جزافا على كثير من مؤسساتنا

التجارية والصناعية والدوائية، وما تنتجه من الآلات والأدوات المنزليـــة والأدوية وأدوات التجميل وغيرها، مما يطرح في الأسواق للاستعمالات اليومية ، وهذا هو الموضـوع الذي أثاره عـام ١٩٨٩ (ألف وتسـعـمـائة وتسـعـة وثمـانين) زمـيلنا الفاضل الأستاذ الدكتور عز الدين عبد الله ، وناقشه المجلس في بعض جلساته السـابقـة . واتـخـذت بشـأنه القـرارات المناسبة . لوقف هذا السيل المتدفق من التسميات الأجنبية .

أما فيما يتعلق بالتعليم الجامعي ، فنحن لا نحـتـاج إلا إلى قـرار حـازم شجاع يصدره «صاحب القرار» كما ذكـرت من قـبل ، وبمعنى أدق نحن في حاجة إلى تصحيح وضع منصوص عليه في اللائحة الأساسية للجامعة المصرية (جامعة القاهرة حاليا) إذ لا يوجد غيرُنا في جميع العالم المتحضر من يقومون بالتدريس في المعاهد العليا والجامعات بلغة غير لغتهم الوطنية ، فإذا ما تم ذلك فإننا نعود إلى الطريق القويم ، ونسير بخطى ثابتة نحو التقدم والنجاح .

والله ولي التوفيق .

محمد رشاد الطوبي

عضو المجمع